الباب الخامس
فى الموازنة الأدبية

— ١ —

الموازنة بين الأشياء والآراء أصل من أصول البحث العلمى ذى الآثار الهامة فى العلوم والفنون ، يعمد إليه علماء النبات مثلا فيقرنون كل نوع نباتى بآخر لمعرفة أوجه التشابه والتقابل بينهما توصلا إلى تعرف كل نوع وتحديد خواصه العنصرية وآثارها ، وعن ذلك تتكون الفصائل النباتية وتوضع قوانينها العلمية وتسير التجارب التطبيقية ، وكذلك يعمل علماءُ الطبيعة والكيمياء بالعناصر والأحماض والفلاسفةُ بالآراء والنظريات ، والمؤرخون بالحوادث والعصور ، والجغرافيون بالبيئات والأقاليم ، والفنيون بالأدب والرسم والتصوير والموسيقا و بالألوان المختلفة والألحان المتباينة والعناصر البيانية والقطع الفنية .

وطبعى أن تدخل الموازنة باب الدراسة الأدبية نقداً وتأريخاً للفرق والمقابلة بين عناصر الأدب ، وفنونه ، وعصوره ، ورجاله قصد الايضاح أو الترجيح .

وقد ظهرت الموازنة مبكرة فى تاريخ الأدب العربى و بقيت تسايره على مرّ العصور إلى اليوم . وستبقى دائماً من وسائله النقدية والتأريخية ، فاذا صح ماروى من قصة أم جندب وموازنتها بين امرىء القيس وعلقمة فى وصف الفرس ، ومن أن النابغة الذبيانى كان الحكم الأدبى بين شعراء عكاظ ، دلنا ذلك على أن الموازنة كانت أساساً للمفاضلة منذ الجاهلية ، وكانت مدرسة الحطيئة وكعب بن زهير

مقابلة لمدرسة الشماخ وأخيه مزرد[1] وفى صدر الاسلام كانت الموازنة بين القرآن الكريم و كلام العرب ، وكانت بين شعراء الرسول وخطبائه من ناحية وشعراء الوفود العربية وخطبائهم من ناحية أخرى . وكان العصر الأموى زاخراً بالموازنة بين الفحول والعزلين والسياسيين من الشعراء ، و بين الخطباء والأدباء جميعاً فخلف لنا ثروة نقدية قيمة على رغم ما تأثرت بالعصبيات والأهواء والأمزجة .

أما فى العصر العباسى فقد بدأ هذا الفن النقدى نشيطا بين بشار بن برد ومروان بن أبى حفصة ، و بين مسلم بن الوليد وأبى العتاهية وأبى نواس، ثم بين أبى تمام والبحترى و بين المتنبى وخصومه ، و بين ابن المقفع وعبد الحميد ، و بين البديع والخوارزمى و بين الفلاسفة وعلماء الأدب ورجال الدين والفن و بين الشعر والنثر والخطابة والكتابة واللفظ والمعنى و بين الفكرة والفكرة والخيال والخيال و بين الأشياء والأحياء، وفى كل ما هو صالح لهذا الضرب، وهذا عصرنا الحديث يتخذ الموازنة أساساً لأبحاثه نزولا على طبيعة الدراسات فى أصح أوضاعها وأقوم سبلها .

ذلك من الناحية الفنية ، وأما الناحية التاريخية المتصلة بالتدوين وتقرير الآراء وأصول الموازنة فلم تتخلف كثيراً عن ذلك ، وكان محمد ابن سلام الجمحى المتوفى سنة ٢٣١ هـ من أسبق من عرضوا الموازنة فى كتابه — أو كتابيه على ما يظهر — طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين . فان جعله هؤلاء الشعراء طبقات قام على الموازنة الفنية التى ترجع إلى أساسين : كثرة الشعر ، وجودته . وجاء ابن قتيبة فى مقدمة كتابه (الشعر والشعراء) فظهرت الموازنة عنده فى اختياره لكل شاعر ما يراه جيدا وفى تقسيمه الشعر أقساما فنية أربعة ، والشعراء إلى مطبوعين ومتكلفين وفى غير ذلك . وكان الصولى فى أخبار أبى تمام منصفاً

(١) ابن سلام : طبقات الشعراء ص ٣٤ طبعة مصر .

بين القدماء والمحدثين حين عرف لكل فريق تجويده فى وصف بيئته التى شهدها دون الأخرى التى يصفها تقليداً واستشهد لذلك بقول أبى نواس :

صِفةُ الطلولِ بلاغة القِدَم فاجعل صفاتِك لابنةِ الكَرْم
تَصفُ الطلولَ على السماع بها أفذو العيان كأنتَ فى الفهم
وإذا وصفتَ الشىء متبعا لم تخلُ من زَلل ومن وَهم

ثم ساق فى كتابه أمثلة للموازنة بين أبى تمام والبحترى غالباً مع ميل إلى أبى تمام صريح . ولكن الآمدى فى كتاب الموازنة فاضل بين البحترى وأبى تمام لغزارة شعريهما وكثرة جيدهما وبدائعها وذكر لكل خواصه مع ميل إلى البحترى[1] وإن حاول إخفاءه وادعى البراءة منه ومن إطلاق القول بأيهما أشعر عنده لتباين الناس فى العلم واختلاف مذاهبهم فى الشعر ، وله فى ذلك أسوة إذ لم يتفق الناس على تفضيل أحد فحول الجاهلين والإسلاميين ولا المحدثين ، وقد حاول أن يتخذ للموازنة وضعاً أو صورة دقيقة بعقدها بين قصيدتين من شعرهما إذا اتفقتا فى الوزن والقافية وإعراب القافية ، ولكن هذا لايكاد يتفق مع اتفاق المعانى التى يقصدان إليها[2] .

وخلاصة مذهب الآمدى فى الموازنة بين الطائيين هى « توضيح لمذاهب الشعر العربى ، واستنباط لأصالة كل منهما فى كل معنى عبرا عنه ، ثم مقارنة ماقالاه بما قاله غيرهما من الشعراء مع الحكم على تلك الأصالة حكما يقوم على الذوق والحقائق الإنسانية العامة ، وإن لم يخل الأمر من تحكم ، ثم الوقوف فى تفسير التفاوت عند النزعة الفنية دون أى محاولة ليرد ذلك إلى الطبيعة النفسية لكل شاعر ، وذلك لفطنة الناقد إلى أنه لاعلاقة بين شعر هذين الشاعرين وتجارب حياتهما ؟ ! »[3] .

(١) ص ١ و ٢ و ١٦٦ و ١٧٢ طبعة الجوائب . (٢) ص ٣ و ١٧٤ .
(٣) محمد مندور : تيارات النقد الأدبى فى القرن الرابع الهجرى (مخطوط) ص ٣٦٩ .

« هذه موازنة الآمدى وسبيله إليها وهى ، كما ترى موازنة منهجية فى ناحيتيها المختلفتين : ناحية المفاضلة وناحية استنباط الخصائص . والمشاهد فى تاريخ النقد العربى ، أنها ظلت الوحيدةَ من نوعها إذ أن المؤلفين اللاحقين قد اكتفوا بأحد أمور : —

(١) فإما أن ينقلوا إلينا آراء السابقين فى المفاضلة بين الشعراء وهذا ما نجده فى العمدة لابن رشيق .

(٢) وإما أن يأتوا بموازنة وصفية عامة كتلك التى يوردها ابن الأثير عندما يوازن بين أبى تمام والبحترى والمتنبى ، ويحدد فيها خصائص كل منهم .

(٣) وإما أن يضعوا مقاييس للحكم على جودة الشعر ورداءته كما يفعل عبد القاهر الجرجانى .

ولقد سبق أن رأينا عبد العزيز الجرجانى نفسه يقارن بين المتنبى وغيره من الشعراء كما فعل فى وصفه للحمى ، ووصفه للأسد ، ولكن مقارنته جاءت مقتضبة لاغناء فيها .

موازنة الآمدى ، إذاً ، فريدة فى النقد العربى ، ونحن لم نقصد من هذا الفصل إلى إظهار كل ما فيها من غنى ، وإنما وضحنا موضوعاتها ومناهجها تاركين للقارىء أن يتمهل عند ما فيها من تفاصيل ، وهو لا ريب ، واجد عندئذ ثروة لا حد لقيمتها[1] .

وأما الجرجانى فى كتاب الوساطة فقد عزا النبوغ فى الشعر إلى الطبع والرواية والدربة . ووازن — على هذا الأساس — بين القدماء والمحدثين فوجد حاجة المحدثين إلى الرواية أمس وإلى كثرة الحفظ أفقر . ووازن بين أساليب

---

(١) نفس المرجع ص ٣٧٩ .

الشعر من حيث دلالتها على اختلاف الطبائع والخلق وتنوعها حسب الفنون الشعرية المختلفة .

« وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء فى الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب وشبه فقارب وبده فأغزر ولمن كثرت سوابر أمثاله وشوارد أبياته ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ولا تحفل بالابداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض [١] .

وجاء ابن رشيق فى كتاب العمدة فألم بآراء سابقيه مما يتصل بالموازنة فأبو عمرو بن العلاء كان يعد جريراً وطبقته مولدين بالنسبة للجاهليين وكان لا يعد شعراً إلا للمتقدمين ولا يحتج إلا بشعرهم وسئل عن المولدين فقال : ما كان من حسن فقد سُبقوا إليه وما كان من قبيح فهو من عندهم ، وليس النمط واحداً ، ترى قطعة ديباج وقطعة مَسح وقطعة نِطع ، ومثله فى ذلك الأصمعى وابن الاعرابى كل واحد منهم يذهب فى أهل عصره هذا المذهب ، وليس ذلك إلا لحاجتهم فى الشعر إلى الشاهد وقلة ثقتهم بما يأتى به المولدون ثم صار لجاجة [٢] ثم أورد لابن قتيبة كلاماً يشبه ما مر للصولى ، وما قيل من أن على بن أبى طالب كان يفضل امرأ القيس على الشعراء بأنه كان أحسنهم نادرة وأسبقهم بادرة وأنه لم يقل لرغبة ولا لرهبة ، ثم ما قال العلماء عنه من سبقه إلى أشياء أخذ بها الشعراء [٣] وبعد هذا يقسم الشعراء إلى طبقات زمانيـــــة وفنية [٤] وإلى أنصار اللفظ وأنصار المعنى [٥] والشعر إلى مطبوع ومصنوع [٦] ثم يوازن بين الشعراء فى البديهة والارتجال [٧] وفى التصرف فى فنون الشعر [٨] ويوازن بينهم وبين الشعراء من

---

(١) ص ٣٨ . (٢) جـ ١ ص ٥٦ . (٣) جـ ١ ص ٥٩ .
(٤) جـ ١ ص ٧٢ . (٥) جـ ١ ص ٨٢ . (٦) جـ ١ ص ٨٣ .
(٧) جـ ١ ص ١٢٧ . (٨) جـ ٢ ص ٨٢ .

الكتاب الذين يراهم أرق شعراً وأحسن أسلوباً وألطف معانى وأقدر على التصرف وأبعد من التكلف موازناً بين الصولى وابن الرومى[١] و يعرض أخيراً لسيرورة الشعر ومن ظفر بها من الشعراء[٢] .

فلما نهض عبد القاهر الجرجانى فى القرن الخامس بدراسته البلاغية الرائعة لم يخل فصل من كتابيه (دلائل الاعجاز) و (أسرار البلاغة) من مثل للموازنة بين أساليب البيان وعباراته ومعانيه ، ولكنه فى دلائل الاعجاز خاصة وازن فى الشعر بين معانيه « وهو ينقسم قسمين : قسم أنت ترى أحد الشاعرين فيه قد أتى بالمعنى غفلا ساذجاً وترى الآخر قد أخرجه فى صورة تروق وتعجب ، وقسم أنت ترى كل واحد من الشاعرين قد صنع فى المعنى وصور »[٣] ومثل ذلك ثم فسر الصورة بأنها طريقة عرض المعنى وهى مجال اختلاف الشعراء واستشهد بقول الجاحظ : و إنما الشعر صناعة وضرب من التصوير[٤] .

و ينتهى الأمر إلى ابن الأثير فى المثل السائر فيتناول الموازنة كما تناول السرقات الشعرية بدراسة لا بأس بها ، فيوازن بين أبى تمام والمتنبى والبحترى و يفضلهم على جميع شعراء العربية إلى عهده و ينتهى من الموازنة إلى أن الأولين حكيمان والشاعر هو البحترى[٥] وتدعوه دراسة السرقات إلى الموازنة بين أبى تمام والمتنبى فى رثاء الأطفال مبيناً ما اتفقا فيه من المعانى وما اختلفا فيه[٦] ثم يقول بعقب ذلك « واعلم أن التفضيل بين المعنيين المتفقين أيسر خطباً من التفضيل بين المعنيين المختلفين واحتجوا على ذلك بأن قالوا . المفاضلة بين الكلامين لاتكون إلا باشتراكهما فى المعنى فان اعتبار التأليف فى نظم الكلام لايكون إلا باعتبار المعانى المندرجة تحتها . . وهذا القول فاسد فإنه لو كان ما ذهب إليه هؤلاء من

---

(١) ج ٢ ص ٨٤ — ٨٨ . (٢) ج ٢ ص ١٤٦ . (٣) ص ٣٧٤ .
(٤) ص ٣٨٩ . (٥) ص ٣٠٢ . (٦) ص ٣١٢ .

منع المفاضلة حقاً لوجب أن تسقط التفرقة بين جيد الكلام ورديئه وحسنه وهذا محال . . »[١] .

ولعله يرد بذلك على عبد القاهر الجرجانى . ثم ينكر المفاضلة القائمة على الأعصار لا على الأشعار ، ويرتاح إلى هذه الموازنة الوصفية — من غير تفضيل — التى عقدها الشريف الرضى بين أبى تمام والمتنبى حين سئل عنهم فقال : « أما أبو تمام فخطيب منبر وأما البحترى فواصف جؤذر وأما المتنبى فقائد عسكر »[٢] وعند ابن الأثير ألا يفتى فى الأدب إلا أديب ، وأن فحول الجاهلية أجاد كل منهم فى باب عرف به . وأما الاسلاميون فقد أجادوا فى كل ما أتو به من المعانى المختلفة وأشعر منهم الثلاثة المتأخرون ، ثم يوازن بين المتنبى والبحترى فى وصف الأسد[٣] وفى الرثاء ويؤثر الموازنة القائمة على مقصد يشتمل على عدة معان فذلك أبين فى المفاضلة من التوارد على معنى واحد[٤] وبذلك يكون ابن الأثير قد عنى بمسألتين أوسعتا أفق الموازنة : عدم الوقوف عند المعنى المفرد ، وعدم لزوم الوحدة الفنية أو الموضوعية . وينتهى كتابه بمسألتين أخريين : الموازنة بين الكتابة والشعر ، وبين الشعر العربى والفارسى فى اشتمال الثانى على فن القصص تمثله شاهنامة الفردوسى[٥] .

ومن المعاصرين الذين كتبوا فى الموازنة الأستاذ قسطاكى الحمصى الحلبى فى كتابه (منهل الوارد فى علم الانتقاد) وعنده أن النقد السديد على درجات ثلاث: الشرح والتبويب والحكم وقد وازن بين نصوص شعرية فى أشهر فنون الشعر موضحاً آراءه[٦] . ولصحة الحكم على الأدب قواعد خمسة : نقد القائل ، والقول

---

(١) ص ٣١٤ .
(٢) ص ٢١٥ . (٣) ص ٣١٨ . (٤) ص ٢١٩ .
(٥) ص ٣٢٢ . (٦) ج ١ ص ٢٣١ و ج ٢ ص ٨٣ .

والمقول فيه، والزمان ، والمكان . و بت الحكم يكون بالترجيح أو بترتيب الشيء وتحديد درجته وتعيين طبقته[١] . ومنهم الأستاذ زكى مبارك فى كتابه (الموازنة بين الشعراء) فقد ألم فى قسمه الأول بأهواء النقاد ودعا إلى وجوب البراءة منها لأن النقـد نوع من القضاء ، والموازنة عنده نوع من النقد والوصـف ، وعلى الموازن أن يعرف حياة من يوازن بينهما و يصل بين نفسه ونفسيهما لأن الأديب يؤدى رسالته فى جيل خاص و بيئة خاصة ، وأن يوسع أفق النقـد وأفق يكون واضحاً ذوق سديد . وعليه فى الموازنة بين الشعراء أن يدرس نواحى اشتراكهم وافتراقهم وابتداعهم وأخذهم[٢] إلى غير ذلك . ثم عرض فى قسمه الثـانى أمثلة تطبيقية نافعة .

— ٢ —

هذا العرض التاريخى السريع يعيننا على وضع الأصول اللازمة لعقـد الموازنات الأدبية بين الـكتاب والخطباء والشعراء وهى تتراءى فى ناحيتين :

الأولى : ما يأخذ به الناقد نفسه حين يوازن بين عصرين أو فنيين أو أدبيين أو كتابين أو أسلوبين أو معنيين إلى غير ذلك .

الثانية: ما يتصل بالأوضاع اللازمة لصحة الموازنة حتى تكون معقولة ممكنة.

أما عن الناقد فقد ذكرنا فيما سلف ما يجب ان يتوافر له من كفاية فنية ، ونزاهة أدبية ، وخطة عملية[٣] ونريد هنا مايتصل بفن الموازنة وأهم ذلك مايلى :

(١) أن يكون ملماً بسيرة كل ممن يوازن بينهم من الـكتاب والشعراء والمؤلفين وما توارد على كل من أطوار الحياة ، وأحداث الزمان ، والمزاج الغالب عليـه

---

(١) جـ ٢ ص ٨٣ وما وليها .

(٢) ص ٥٨ الطبعة الأولى . (٣) الباب الثانى : الفصل الثالث من هذا الـكتاب .

وكيف درس وماذا كان يعمل، فذلك ينفعه سواء أكانت موازنة تفسيرية يقصد بها الإيضاح ام ترجيحية تنتهي بتفضيل طرف على آخر وقد أسبقنا القول فى دراسة السير وفضلها على الأدب . ويظهر ذلك حينما نوازن بين الأعشى وزهير، وبين جميل وعمر بن أبى ربيعة ، وبين جرير وصاحبيه ، وبين ابن الرومى وابن المعتز وبين الجاحظ وابن قتيبة ، وأخيراً بين شوقى وحافظ وعبد المطلب ، فلكل من هؤلاء حياته الخاصة التى طبعت آثاره طابعاً خاصاً إذا عرفها الناقد استطاع أن يفسر بها ما يميزه من زميله أو يعرف سبب فضله عليه فى كل فنونه أو فى بعضها .

(٢) أن يتبين النواحى التى اشترك فيها الأدباء أو الآثار الأدبية التى اختلفوا فيها ، ثم ينتقل إلى الأفكار والأخيلة والأساليب وإلى الموضوعات التى تناولتها الكتب والأغراض التى ترمى اليها القصص وطرق الأداء لتكون موازنته عامة شاملة فكتاب الأدب الخاص غير كتب التاريخ والجغرافيا والفلسفة ، ولكل من جرير والفرزدق فخر وهجاء ونسب ورثاء ومدح ومع ذلك فبينهما فروق فى هذه الفنون التى اشتركا فيها ، وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة يخالف طبقات الشعراء لابن سلام على وحدة موضوعها ، وكل من الجاحظ وابن خلدون كاتب ولكن بينهما من الفروق كثير . فذلك من شأنه أن يشرح ميزات ، كل ويعين على الايضاح والانصاف .

(٣) ولا بد من معرفة مبتكرات كل أو سرقاته وكيف أخذها ومقدار ما يفرقه من زميله فى ذلك وما يصله به وذلك يظهر أكثر إذا اتحدت الموضوعات والفنون الأدبية شعراً ونثراً ، خطابة أو تأليفاً كما أسبقنا ، فليس من شك أن هناك صلة ما بين ابن الخطاب وزياد ابن ابيه والحجاج بن يوسف الثقفى فى الخطابة والسياسة ، وبين أبى تمام والبحترى فى فنون الشعر ومعانيه ، وبين

البديع والحريرى فى فن المقامات ، وكل من المتأخرين أخذ من سابقه ثم امتاز بأشياء طريفة كما هو مفصل فى كتب النقد التى ذكرناها منذ حين . وهؤلاء الكتاب والعلماء المعاصرون بينهم من التواصل والتقابل فى الأفكار والأساليب والمناهج ما هو معروف[1] وذلك كله يتضح فى الموازنة بين العصور الأدبية والتاريخية ، فلكل خواصه التى تميزه وان كانت كلها قائمة على الأدب وفنونه ورجاله أو على العوامل السياسية والاجتماعية التى تحيل الحياة وتدفع بالشعوب فى طريق الحياة أو الممات .

وأما عن الأوضاع اللازمة لعقد هذه الموازنة فكثيرة متنوعه ، ولكنها جميعاً تعود إلى أصل واحد هو أن طرفى الموازنة لابد أن يكون بينهما اتفاق من ناحية واختلاف من ناحية أخرى ، فالأشياء المتفقة فى كل شىء على فرض وجودها ، لامعنى للموازنة بينها إذ هى شىء واحد مكرر الصورة . والأشياء المختلفة فى كل شىء ، على فرض وجودها لامعنى للموازنة بينها كذلك إذ لامناسبة بينها تقرن بين أفرادها . فالليل والنهار يتفقان فى أنهما وحدتا الزمان أو مقياساه ويختلفان فيما يلابس كلا من نور وظلمة وظهور كواكب ومغيب أخرى ، ونشاط أو فتور فى حركة الحياة ، والعلم والفن يتفقان فى أنهما وسيلتا الحياة ، ومظهر معارفها ورقيها ، ولغة الجهود الإنسانية . ثم يفترقان فى هذه الوجوه التى ألممنا بها من قبل[2] وهكذا . ولعل المرجع الأول لذلك كله هو (وحدة الحياة) فى أصولها الأولى ثم اختلاف مظاهرها اختلافا متباين الدرجات والأشكال .

ويمكن عرض بعض الأوضاع لشرح هذا الأصل العام فيما يلى :

١ — توافر الميزة وحده كاف لعقد موازنة بين شيئين مهما يختلفا ويتباعدا

---

(١) راجع الأسلوب لأحمد الشايب ص ٨٠ و ١٢٥ طبعة ثانية والموازنة بين الشعراء لزكى مبارك ص ٧٥ .

(٢) الفصل الخامس من الباب الأول .

وذلك يسمح بالموازنة بين العالم والأديب، و بين السياسى والاقتصادى و بين الخير والشرير من كل ذى أثر فى الحياة كما يوازن بين عصور الرقى والانحطاط و بين أنواع الثقافات ومختلف الشعوب والبيئات ، و بين الآداب والحضارات .

٢ — يلى ذلك اتحاد الموضوع بين الطرفين، وهذا هو ما يجعلنا نقرن عالما بعالم ، وفنياً بفنى ، وكاتباً بكاتب، وشاعراً وخطيباً أو روائياً بنظيره. وهنا تكون جهة الاتحاد أقرب وأوضح وتسهل على الناقد مهمته كما نوازن بين جرير والفرزدق و بين ابن سينا والفارابى و بين الجاحظ وابن خلدون و بين على ومعاوية و بين السكاكى والجرجانى ، و بين سيبويه وابن هشام ، و بين الطبرى وابن الأثير .

٣ — بعد ذلك تكون الوحدة فى باب بعينه من أبواب الفن ، كما نوازن بين الغزل الجاهلى والإسلامى أو بين عمر وجميل فى هذا الفن أو بين رسائل الجاحظ والبديع أو بين البحترى والمعرى فى الرثاء أو بين قدامة وابن رشيق فى فى نقد الشعر أو بين ابن قتيبة وابن سلام فى نظام طبقات الشعراء أو بين الأدباء والفلاسفة فى أصول النقد الأدبى ، و بين مأساة وأختها ومقالة وأخرى .

٤ — ونصل أخيراً إلى عناصر الأدب من عاطفة وخيال وأفكار وعبارات . وقد فصلنا القول فيها فى الباب الثالث من هذا الكتاب ، فلا حاجة بنا إلى تكرار ما أسبقناه ، غير أننا نلاحظ أن الموازنة بين هذه العناصر قد غلبت على النقد العربى القديم وكانت الآراء النقدية تدور حولها و إن لم تنس الإشارات العامة إلى الفنون والأشخاص والبيئات والعصور .

— ٣ —

ولن تتسع هذه الفصول لتطبيق أصول الموازنة وتمثيلها فى كل هذه الأبواب والنواحى فذلك يعوزه كتاب فذ ، لذلك أقتصر على الاشارات الموجزة إلى

مواطن الأمثلة أو إلى منهجها ، وعلى القارىء إتمام ما بدأنا ، وعسى أن يوفقنا الله إلى وضع كتاب يكمل هذا ويتناول النقد التطبيقى .

أما الكلام فى عناصر الأدب فقد ألم به كتاب النقد السابقون مثل قدامة والعسكرى والآمدى وعبد القاهر الجرجانى إلماماً صالحاً فيما وازنوا بين الشعراء خاصه وفيما بحثوا من نظم الكلام وعباراته .

والكلام فى الأساليب واختلافها باختلاف الفنون والأدباء قد ورد فى كتاب (الأسلوب) كما وردت به موازنات بين المناهج العلمية وأصحابها وبين الفنون الأدبية خاصة وعامة .

والموازنة بين القصيد أو بين الرسائل تجدها فى كتابى الأستاذين قسطاكى الحمصى وزكى مبارك السالفى الذكر وقد . نشرت فى (الهلال)[1] بحثاً فى رثاء المعرى يصلح مثالا عاماً لذلك ، كما تجد فى إعجاز القرآن للباقلانى والمثل السائر لابن الأثير مثلا لا بأس بها .

وفى تضاعيف هذا الكتاب وكتاب الأسلوب أصول للموازنات الزمانية ، والمكانية ، والعلمية ، والفنية ، والأدبية ، والجنسية يمكن القياس عليها وإكمالها والانتهاء منها إلى ما فيه الكفاية .

ومع ذلك فقد يكون من الخير أن أختم هذا الباب بمثال واحد يوضح ولو جانباً من هذه الأصول التى أشرنا إليها وذلك هو فن الرثاء بين أبى تمام والبحترى وابن الرومى والمعرى . أبو تمام يرثى محمد بن حميد الطوسى بقصيدة مطلعها :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر ... فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

والبحترى يرثى المتوكل بقصيدته المعروفة :

محل على القاطول أخلق داثره ... وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره

(١) عدد أغسطس سنة ١٩٣٨ .

وابن الرومى يرثى ولده محمدا بقوله :

بكاؤكما يشفى و إن كان لا يجدى فجودا فقد أودى نظير كما عندى

وأما أبو العلاء فانه يرثى فقيهاً حنفياً بقصيدته :

غيرُ مجدٍ فى ملتى واعتقادى نوحُ باك ولا ترنُّم شاد

ولكنهم بعد ذلك — كلهم أو بعضهم — يختلفون فى أشياء كثيرة : فى الجنس والزمان والمكان والنشأة والسيرة والشخصية والمزاج ، وفى الصلة بمن يرثون ، وفى البحور العروضية ، وفى خواص كل عنصر من عناصر القصيدة . كان كل منهم طرازا خاصا فى قصيدته ، وحتى تفاوتت درجاتهم الفنية فيها .

فاذا تركنا نواحى الاختلاف العامة المعروفة المتصله بالسيرة والبيئة وتقدمنا إلى الجوانب الفنية المباشرة انتهينا إلى ما يلى :

(١) كان ابن الرومى أضيق الجميع فى أفقه العاطفى إذ أداره حول ابنه والبنوة فلم يوسعه لغير هذه الحال و إن كانت عاطفته حادة صادقة :

توخى حمام الموت أصغر صبيتى فلله كيف اختار واسطة العقد

وكان أبو تمام أوسع منه قليلا إذ كان يرثى بنى نبهان كلهم لما عرض لكبيرهم يبكيه ، فقد تجاوز حزنه إلى القبيلة فشملها جمعاء :

كأن بنى نبهان يوم وفاته نجوم سماء خرَّ من بينها البدر

ولكن البحترى كان يرثى الدولة الاسلامية أو الخلافة العباسية فتجاوز الفرد والقبيلة والأمة إلى هذا العالم الذى يشرف عليه قصر المتوكل :

كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة بشاشتها ، والملك يشرق زاهره

ولم تجمع الدنيا لديه بهاءها وبهجتها، والعيش غض مكاسره

أما أبو العلاء فكان أوسع الجميع أفقا وأسمى عاطفة ، فقد كان يرثى الدنيا جميعا و يقف على هذا البرزخ الذى يصل أو يفصل بين الموت والحياة .

كلُّ دار للهدم ما تبتنى الور قاء والسـيد الرفيع العماد
والفتى ظاعن ويكفيه ظلُّ السـ ـدر ضربَ الأطناب والأوتاد

(٢) وكان الخيال عند كل من الأربعة متناسبا مع أفقه العاطفى من جهة، ومع شخصية الميت من جهة ثانية . فهو عند ابن الرومى — لأنه يرثى طفلا — واسـطة العقد ، ومطلع الأمل ، وعدوان الموت ، ونهكه النزف ، وحبة القلب ، وحزن الأبد ، وثورة على المنايا القاسية وعزوف عن الصبر ومثوبته . وهو عند أبى تمام — لأنه يرثى زعيما — موت الآمال ، وحياة اليأس والمعسرة وشقاء القبيل وذهاب الشجاعة والنجدة ، وكراهية الدهر ، وفقد الصبر والعزاء . وخيال البحترى — لأنه يرثى خليفة — مشتق من خراب القصـور ، وتشتت الخرد المترفات وغدر الأبنـاء بالآباء ، وذهاب الحجاب والأعوان وزلزال الخلافة الاسلامية وطموس البهجة الدنيوية ، والأمل فى استقرار الأمور فى نصابها . أما المعرى — لرثائه الحياة كلها — فقد استنزل الكواكب السائرة ، والحمائم المغردة ، وجمع بين الأرض والسماء ، وخلط بين الحزن والسرور ، وسخر من مظاهر الحياة ، وعقد بين أطراف الزمان ، فاذا الحياة مهزلة والكون إلى فناء .

(٣) وكل كان يسند عاطفته بكفائها من الأفـكار والحقائق وأن نسبوا إلى أبى تمام سرقة ما فى مرثيته من أفكار وصور ، فان ابن الرومى فقد خير بنيه فى ميعة الصبا وطلعة الأمل ، ضحية المرض الأليم ، حين لا يجد عنه عزاء ولا سلوى إلا لذعات الألم تخزه كلما شهد أخويه يلعبان . وأبو تمام فقد كريما نجدا ذهب فى سبيل ثباته وكرامته ، فذهب معه الصـبر ، وانهار مجد القبيلة ، واشترك فى فقده جميع الناس . والبحترى يسند حزنه إلى غدر ولى العهد بأبيه وضعف مكانة الخلافة ، واسـتعانة بالأجنبى على الوالد ، وسلطان الأثرة ، وشناعة المصرع ، وسوء العاقبة . ولـكن المعرى لما حزن على الـكون برر

شعوره بما يشهد الناس من أجيال تتعاقب على مسرح الحياة ، فتلقى عنتها ثم تذهب هباء ، يحيا الخلف على تراث السلف ، والموت رصد لكل كائن فالحياة مدعاة السخرية والعجب ، والموت غايتها الطبيعية المنظورة ، والناس أمام ذلك عاجزون .

(٤) وإذا رجعنا إلى الأسلوب فانا نلاحظ الوضوح متوافرا فى جميع القصائد ، والقوة أظهر عند أبى تمام فابن الرومى ، والجمال متجليا عند المعرى فالبحترى ، وسبب ذلك شخصيات الشعراء المختلفة وصدى الحوادث فى نفوسهم وكيفية تلقيها ، فزعين ثائرين أو متأملين مطمئنين وكان البحر العروضى عند المعرى من أسباب الجمال وروعة الأسلوب . ويمكن الاكتفاء بهذا القدر إذا كنا نطلب الايضاح والتفسير . أما إذا كان لابد من الترجيح وبت الحكم ، فالمعرى أول هؤلاء جميعاً لسمو عاطفته ، وصدق نظراته وجمال أسلوبه ، ويليه البحترى فى ذلك . وفى الدرجة الثالثة نضع أبا تمام وابن الرومى فان صدق العاطفة وحرارتها عند ابن الرومى كفاء سعة الأفق وقوة الأسلوب عند أبى تمام لأن هذا كان مادحا واصفا أكثر منه راثيا .

وإذا كانت الميزة لا تقتضى الأفضلية فلا يفهم مما ذكرت أنى فاضلت بين هؤلاء الشعراء مفاضلة عامة ، بل وقفت عند هذه القصائد التى أجملت الموازنة بينها ليس غير . ويستطيع القارىء الاستئناس بما ذكرنا ليقول فيما لم نذكر . ولعل فى ذلك ما يكفى ولو إلى حين .